شموس نيسان
الفنان الفلسطيني إسماعيل شموط

الخفاء

مهند عبد الحميد

يتنفس الوادي بأنسام المساء، فتولول شجيرات الدغل، وتغني خصلات الرتم لحن الليل ....كانت تفر من سهامه باستباق السهام ومحاكاة مروقها في الفراغ، شرر يخترق الفضاء ليلاحق شررا ...

ابصرت حدقتين كحلاوين كبيرتين مغسولتين بألق فتان . اهداب طويلة موسومة بسيماء الكحل . في المقلتين اللامعتين لم تر البهاء وحده، لم تر الفتنة وحدها، لم تر الاغواء وحده، ابصرت نداء اخر وايماء آخر ....

افتتن ببشرتها اللميسة الكحلاء، وانقاد وراء بسمة لها، جذابة تفضخ ثغرا مرصعا بأدق وأنصع أسنان، كان لها سحر القبس البكر وهو يشق بضوئه السماوي الخجول قوس الافق . حيره القوام كثيرا، وساءل السماء عن سر القد، وبلغ به الافتتان حدا لم يعد يرى معه في الصحراء الا وثناً، جسداً، حسناء تتغسل بفيض الاضواء، في انفاسها تهب ريح، في عودها كبرياء الجلاميد، في دمها سر السلسبيل ...

هكذا، ينطق ابراهيم الكوني في رائعته «عشب الليل » عالم الصحراء، المليء بالخفايا والمفاجآت، يتعمق في دواخله العجيبة، ويشرع بفك طلاسمه ، فيقدم الطبيعة القاحلة في لوحات جمالية ساحرة، تجمع الق الغزلان، وموسيقى الرتم، وفتنة الحسناء، في وحدة خالدة .

يقدم انسان الصحراء في اسطورة هائمة تعج بثقافة مازالت تخترق حاضرنا وتعشعش في زوايا اسمها الخفاء .

فز وبدأ يحشو فمها بطرف ثوبه الفضفاض، حاولت التخلص من ذراعيه دون جدوى، وصاح هاتوا المسد ...وشرع يحشو الياف المسد المتوحش في فم الفتاة المسكينة، برطمت بالكلام، ورأى الجمع كيف نزت خيوط الدم من فمها ومضى النزيف يسيل ويغمر الشفتين .

أراد ان يمنعها من النطق، من قول شيء ما للناس، من اذاعة سر ما، أو قول حقيقة ما . أراد ان يبقي ذلك السر في عالم الكتمان والخفاء . الخفاء الذي تحجبه الظلمات ويجلله السواد، فتخيم عليه العتمة التي ليست ايحاء الخفاء وحجابه النبيل فحسب، ولكنها وطنه، وهي عكس البياض ونقيضه الذي لا يخفي شيئا ولا يملك ما يخفيه .

الخفاء احد عناصر ثقافتنا الصحراوية، الذي ما زال يخفي عنا الشيء الكثير . فللخفاء يد في كل امر خفي . جسد الحسناء يتخفى فيه سر كما تتخفى الاسرار في جسد الصحراء . كانت الارض تتنفس صهداً كأنها تنفث سماً حتى بعد غياب الشمس . من اين جاءت النبتة الخفية في واد تكاد تحترق فيه حتى الحجارة . يقال انها ترتوي من انسام الشمال مثلها مثل الطلح والوّدان والغزلان . ورقة منكمشة حول نفسها كأنها تجاهد بانكفائها لاخفاء سرها . انها تنبت في اكثر اعوام الجدب قساوة في الصحراء، الصحراء التي تستطيع ان تنبت العشبة ليلاً وتحجبها نهاراً او تطلعها ليلاً وتحجبها ليلا، وفي كل الاحوال تتبدد ما ان يطلع شعاع الشمس . هذه العشبة اشعلت في رأسه ناراً وفي بدنه شهوة لم يعرفها . وبعد ان اكتشف مزاياها الخفية جففها وهرسها ودسها في صرة تحت الكم، كما تدس كل التمائم، كي يزور بها شيخوخته في احدى الخباء المظلمة .

الخفاء هو السلطان، الخفاء هو الوطن الاول . لا يوجد انسان في الصحراء لا يبيت في جوفه سرا، حتى انثى الصحراء، لا تعشق رجلا لا يخفي سرا ولا يثير فضولا. على المرء ان يصمت ويحتمل ما لا يحتمل اذا ارتضى بالاغتراب وطنا . والانسان الذي يخاف الخفاء لا يطلب الخلود ابدا.

ومن اجل ان تسود الخوافي، لا بد من الحجاب الذي يفعل الناس خلفه الكبائر ويسلكون الطرق المتعرجة والملتوية . السير في السبيل المستقيم كانت الخطيئة التي قضت على غزلان الصحراء، انبل ملل الصحراء.

انسان الصحراء استعار مسلك سلالة اخرى هي «الثعالب التي تسير في طريق متعرج ». حتى المدية لها لسان اخر مختبىء في النصل، يجاور اللسان الظاهر للعيان، لكنه يرتد الى الوراء ليستقر في صدر من يطعن في الوقت ذاته .

عشب الليل اخفى به العجوز عمره، وظلمة الخفاء اخفى بها نسبه لحفيدته الضحية، والمسد المتوحش اخفى به لسان الفتاة ومنعها من النطق بالسر.

ونصل المدية اخفى اللسان .الاخر الذي ارتد الى الوراء لحظة طعن الضحية للعجوز فاستقر في صدرها واستحالت الى جثة هامدة، ارادت ان تخرج من عتمة الخفاء ولغز الصحراء، فدخلت عالم الموت، خفاء من نوع اخر .

اشياء جميلة،وقيم رائعة قد تكون كثيرة، في الصحراء وفي ثقافتها،.

لكن الخفاء، يبقى لغز الصحراء الذي ما زال من مكونات ثقافتنا بل «كعب اخيل» تلك الثقافة . فحتى الان يحارب من يجرؤ على الخروج من ظلمة الخفاء .

كل من اختار العيش تحت الشموس .

ثمة تشابه في السلوك بين الماضي والحاضر، فالمهم هو ارضاء الاكثرية الدهماء على حساب العقلاء والحكماء وعلى المرء أن يكون ضعيفا، يقدم موقفا معلنا يرضي الناس، وموقفا خفيا يرضي به نفسه، ويتبنى رغبة معلنة واخرى تحلق في الخفاء .

فالاشياء التي لا تظهر لنا باقية، اما الاشياء التي تتبدى لعيوننا، وتظهر لنا في العراء فأنها لا تمكث طويلا وسرعان ما تختفي .

الخفاء الذي نعيشه الان يصنع الخوف وينمي حشود الخائفين، والخائفين يحبون سلاطينهم حتى الموت! من يجرؤ على مغادرة الخباء والحجاب والظلمات؟ ولماذا لا نستقوي بلغة الصحراء العربية الساطعة كالشمس والتي لا تعرف معنى للخفاء، ونبدد بها العتمة ؟!